(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)

الهوية والانتماء ومعايير العلاقات بين الأفراد والأمم

عبد الرحمن السالمي *

أدى الصعود الديني في النصف الثاني من القرن العشرين إلى اندلاع نقاشاتٍ بين الباحثين والمناقشين، تشبه تلك النقاشات التي ثارت إبان الصعود القومي في العالم في القرنين التاسع عشر والعشرين، وتناولت تلك النقاشات في الحالتين أمرين اثنين بشكلٍ رئيس:

الأوَّل: ماهية وطبيعة الهوية والانتماء، وأيٌّ من الانتماءين القومي أو الديني هو الألصقُ بطبيعة الإنسان والأكثر تأثيراً في توجهاته الخاصة والعامة.

والأمر الثاني: ما هو تأثير سواد هذه الموجة أو تلك على العلاقات بين الشعوب والأمم؛ فالملاحظ أنّ المد القوميَّ في أوروبا والأمريكتين، ثم في آسيا وأفريقيا، سُرعان ما جرى الاعتراف به، بحيث قامت الدول ثم قام النظام الدوليُّ على أساس منه، ومع ذلك فإنّ الصراع بين الشعوب والأمم وعلى أساسٍ قومي ودينيٍ أفضى إلى حروب عالمية، وإلى عشرات الحروب والنزاعات المحلية التي ما يزال بعضها دائراً حتىّ اليوم، أما الصعود الديني فقد غيّر الأفراد والجماعات داخلياً في الذهنيات والسلوك؛ لكنه لم يؤدّ إلى تغييرات على المستوى العالمي، وذلك باستثناء الصراع المعروف بين الولايات المتحدة والقاعدة، وما يتحدث عنه الأوروبيون الآن من صعوبات لدى المسلمين في الاندماج في المجتمعات الجديدة التي هاجروا إليها، وقد دفع ذلك الباحثين إلى الذهاب إلى أنّ التوجُّه القومي عاملٌ أساسيٌّ في التغيير السياسي داخل كلّ أمةٍ وفي العلاقات بين الأمم, بينما يؤدي التوجُّهُ الدينيُّ الجديد إلى تغييرات في الذهنية والسلوك، لا تؤثر في التوجُّه السياسي العامّ بالضرورة, وهذا الاستنتاج ربما يُستثنى منه الإسلام في وجوه نهوضه في العقود الأخيرة.

ماذا يعني ذلك؟ إنه يعني أنّ التوجُّه الديني هو ألصَق بداخل الإنسان ودوافعه الذاتية، أي أنه ألْصَقُ بالثقافة؛ بينما يذهب التوجُّه القومي باتجاه أو اتجاهاتٍ خارجية، أي أنه أكثر تأثيراً في العلائق بين الأمَم والشعوب، وعندما نقرُّر ذلك فهذا لا يعني أنّ التوجُّه القوميَّ أو الديني عديم التأثير في السلوك الخاص, كما لا يعني أنّ التوجُّه الديني عديم التأثير في التوجُّه العامّ.

إنّ في القرآن الكريم ما يُشعرُ بأنّ الدين ألصقَ بالفطرة أو الطبيعة الإنسانية: (فطرة الله التي فطر الناسَ عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدينُ القيّم) والفطرةُ تعني الطبع والطبيعة، وتعني الدوافعَ الإنسانية الداخلية والعميقة، ولذا فإنّ المترتب على وجود توجُّهٍ دينيٍّ معيَّنٍ سائد هو ظهورُ منظومة قيمية أو أخلاقية تحكم السلوك الإنساني في المسائل الشخصية، وفي طرائق التعامل مع المحيط القريب، فتؤثر استطراداً وعبر المحيط القريب في المشهد العام؛ لكن لأنّ المشهد العامّ تتداخُل وتتشابك فيه عدة عوامل؛ فإنَّ الاقتناع الدينيَّ في حين يكونُ العامل الرئيس في السلوك الشخصي؛ يظلُّ أحدَ العوامل في التأثير العام، وقد نبهنا القرآن الكريمُ لذلك في سورة الروم، حينما تحدث في مطلعها عن الروم (وليس عن المسيحيين)؛ لأن الموضوع ما كان الدين أو الإيمان؛ بل كان الصراع بين الروم والفرس أو الإيرانيين في العقود الأولى من القرن السابع الميلادي، وقد كان لذلك الصراع -كما هو معروف- بعض المظاهر الدينية (أخذ الفرس للصليب من بيت المقدس إلى عاصمتهم المدائن)؛ لكنه ظلّ في جوهره صراعاً سياسياً واستراتيجياً بين أمتين ودولتين كبيرتين، وعندما حصلت الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي، ظل الروم والفرس يتحدثون عن الصراع مع العرب وليس مع الإسلام، مع أنَّ الذين كتبوا عن الفتوحات -من المسلمين أو من الأمم الأخرى- وضعوا الدين الإسلامي الجديد وقتها بين العوامل الرئيسة التي أدت إلى نجاح الفتوحات. وما دام الأمر قد اتضح على هذا النحو، فلنعُدْ إلى الحديث عن تأثيرات الهوية والانتماء في العلائق بين الأمم في الأزمنة الحديثة، وما ظهر من وجوه للتشابُك أو التقاطع (من ناحية المظهر على الأقل) بين الهوية الدينية والانتماء القومي، لقد دفعت تلك الظواهر والمظاهر بعض الدارسين (مثل صموئيل هنتنغتون) للحديث عن "صراع الحضارات" بدلاً من الصراعات ذات الأسباب والدوافع القومية والأيديولوجية والاستراتيجية، وبسبب الصعود الديني في سائر الأديان وبخاصة البروتستانتية والإسلام؛ فقد كان هناك من اندفع وراء أُطروحة هنتنغتون معتبراً التغيير أو الثوران الثقافي/الديني هو الأغلب، إنما في واقع الأمر ما تزال للعلائق بين الأمم -سواءٌ أكانتَ جيدةً أو سيئة- أسبابُها القومية والسياسية والاقتصادية، وهي أكثر من الدوافع والعوامل الدينية، التي لا تتحرك باتجاه الصراع إلا عبر جماعاتٍ صغيرةٍ وفي ظروفٍ خاصةٍ مابين الانحشار والاستهداف.

لقد دخلت العقود الثلاثةُ الماضيةُ بصرعات عنيفةٍ تغير على وقعها العالم بانتهاء الحرب البارد، وظهور ترتيبات جديدة لم تستقر بعد على نظام، وقد دفع ذلك كثيرين -كما سبق القول- إلى العودة للمسائل الدينية والثقافية ودورها أو أدوارها في الصرعات، والحقيقة أنه لم تكن هناك أدوارٌ معتبرةٌ في متغيرات العالم العامة لغير العوامل الاستراتيجية، وإنما ستكون للعوامل الدينية والأخلاقية والثقافية أدوارٌ في الترتيبات الجارية أو القادمة, وليس في الصراعات التي حصلت وتحصل؛ فالتغير الديني والقيمي والثقافي يعمل بآلياتٍ غير الآليات العسكرية والاقتصادية والاستراتيجية, إنه يعمل في المدد الطويلة، وفي مجالات رؤية العالم وفي صُنع حضارته. ومن أجل دراسة وتأمل المتغيرات وأدوار الأديان

والثقافات فيها كان هذا العدد من التسامح الذي يتفحص مسارب الهوية والانتماء في العلاقات بين الدول والأمم.